عاطف العراقى بين التراث والتجديد

مفهوم التراث وموقف (العراقى) التجديدى منه

ماذا يعنـى التراث عند عاطف العراقى؟ وما هى حقيقة موقفه منه؟ هـل رفضه جملة وتفصيلا كما اتهمه البعض بذلك؟ أم كانت له منه وقفة عقلانية تنويرية هادفة؟

إذا اعتبرنـا أن التراث – كمـا يذكر زكى نجيب محمود الذى تتلمذ (العراقـى) على أفكاره ومنهجه – عالم فسـيح الجنبات كثير الأبعاد عميق الأغوار فيه قواعد الدين وفيه مذاهب الفقهاء وفيه الشـعر وفيه النثـر الأدبى وفيه الفلسـفة وفيه كتب المتصوفـة وعلماء الكلام كما أن فيـه علوم اللغة والعلوم بكل أنواعها بل فيه العادات والتقاليد والقيم، فإن التراث بهذا المعنى يعبر عن حضارة الأمة بل إنه جزء لا يتجزأ من هويتها وجذورها الأصلية.

لكـن هذا التراث فيـه الصالح وفيه الطالح فهـو ينطوى على أضداد ومتناقضات وعلى رغم أنه يمثل الماضى إلا أن له أثره العميق فى الحاضر وهو بمثابة السيطرة التى يفرضها الموتى على الأحياء لذلك كان (العراقى) حذرا فى موقفه من هذا التراث وفى تناول قضاياه وشـخصياته حقا لقد قام الإنسان العربى بدور لا يمكن التقليل منه فى الماضى ولكن وبرؤيته الناقـدة الحادة يؤكد أننا لا بـد أن نضع فى اعتبارنـا أن الأفكار التى

روجـوا لها وانتصروا لها ليس من الضـرورى أن تكون كلها أو بعضها مناسـبة لنا فى حياتنا الحاضرة.... ويعقب أنهم يتحدثون عن التراث وكتب التراث ونقصد بهـا المتغير من التراث – وبالطبع لا يدخل فيها الديـن – وهذه الكتب قـد وضعها أناس مثلى ومثلك وإذا كنا نجد فيها المعقول تارة فإننا نجد فيها الخرافة تارة أخرى.

وإذا كنـا نرى فى كتب التراث بعض الأفـكار البناءة الممتازة والتى تفيدنـا فى حياتنا المعاصرة إلا إننـا نجد فى بعضها الآخر الأخطاء بل آلاف الخرافات، فلنأخذ إذن من التراث ما نأخذ ولكن ما نأخذه ينبغى ألا يكون عقبة فى طريق تقدمنا وازدهارنا..لذلك فيجب علينا إزاء فكر فلاسـفة العرب أن نقف موقـف المحلل الناقد فهم أولا وأخيرا بشـر وليسـوا بقديسـين ولو خلعنا عليهم وعلى أفكارهم هالات من القداسة لأخطأنا خطأ شنيعا.

حدد (العراقى) ملامح نظرته التجديدية للتراث العربى الفلسفى فى كتابه «مذاهب فلاسـفة المشرق» ثم عرض تطبيقا لهذه النظرة فى كتابه (تجديد فى المذاهب الفلسـفية والكلامية) وأعقبه بكتاب (ثورة العقل فى الفلسفة العربية).

هذا التجديد للتراث لا يقف عند حدود طبع التراث وانتشـار آلاف المطابـع لتكريـس ما فيه مـن خرافات وأباطيل، ولا يقـف عند حدود تحقيق التراث كعمل تقليدى لا يضيف جديدا لهذا التراث وإنما يجب أن يتخطـى ذلك إلى ما يسـمى إحياء الـتراث إذ إن إحياء التراث يقوم

علـى فكرة رئيسـية ومحور جوهرى هو أن نأخذ مـن التراث ما يتفق وحياتنا المعاصرة التى نحياها ونرفض منه مالا يؤدى إلى تقدمنا الفكرى والاجتماعى. ولا شـك أن إحياء التراث يحمل فى طياته منهج التجديد والتغيير إذ يقتضى ويسـتوجب النقد كأسـلوب لتنقية هذا التراث كما يؤكد (العراقى) ذلك بقوله:

«واعتقـادى أن قبول تراث الأجداد بكل ما فيه أو رفض تراثهم بكل مـا فيه لا يصح، إذ إن رفض التراث جملة وتفصيلا إنما يصيبنا بفقدان الذاكرة ولذا يجب أن تكون أحكامنا فى مجال دراسة هذا التراث قائمة على أساس الروح النقدية المنهجية العلمية».

إذن تدفعنا الوقفة المنهجية أمام التراث إذا أردنا إحياءه إلى أن نقبل مـا نقبل منـه ونرفض ما نرفض وننقد ما ننقـد أو أن نأخذ فى تحويل هذا التراث بكل ما فيه مـن اللون الأصفر والأوراق المتآكلة بفعل الزمن إلى اللـون الأبيض أو نكتفى بمقارنة نسـخ من هذا التراث (مخطوطات مثـلا) بعضها ببعض فى عمل روتينى لا يقدم جديدا ولا يغير سـائدا على رغـم أهمية هذه الخطوة كعمل تمهيدى يسـبق الإحياء، فإن هذا ما ينبهنا (العراقى) إلى خطورة اعتباره تجديدا لأن انتشـاره وشيوعه يوهمنا بأننا نجدد ونتقدم على رغم أن الواقع يؤكد أننا ندور فى حلقة مفرغة وأننا نكرس الأخطاء من جيل إلى جيل دون أن نعى ذلك.

تعـرض (العراقى) لهجوم حاد ومواقف عدائية قاسـية ومضايقات واتهامـات مـن جانب أعداء التقـدم وأعداء الحريـة وصلت إلى درجة

المحن جراء هذا الموقف الواضح والمواجهة الحاسمة لأناس انغلقوا على ذواتهم وتحجرت عقولهم ومواقفهم الفكرية داخل صومعة التراث بكل ما فيه من أخطاء وأغاليط دون تمييز.

فى إحدى ندوات المجلس الأعلى للثقافة حول «التراث العلمى العربى» وكان ذلك فى تسعينيات القرن الماضى كان (للعراقى) رؤيته النقدية والتى عرضها باستفاضة دون خوف أو مواربة عن التراث العلمى عند ابن سينا رؤية نقدية التزم الموضوعية فى العرض والمنهجية النقدية فجعل يهدم منه مالا يقبله عقل ويسلب عنه ما لم يعد صالحا للعصر، لكنه قوبل بعاصفة من السخط والجدل من أولئك المتعصبين أصحاب العقول والأذهان الضعيفة الذين يتصورون أن التراث كله مقدس لا يمكن لأى إنسان مهما بلغ من العلم والفهم والتمييز أن يمسه بسوء وكما يقول تلميذه «دكتور مجدى إبراهيم» عن التراث – وكان من الصفوة التى حضرت هذه الندوة – كأنما هو بيان سماوى كأنه التنزيل ويستطرد فبقينا نحن تلاميذه ندفع الشبهة ونرأب الصدع لكن النقاش احتدم وصاروا يهاجمون (العراقى) ويتهمونه بأنه يهاجم التراث العربى ولا يرى لنا هوية أو حضارة ونزلت هذه المزاعم على أسماع تلاميذه كالصاعقة وأثار ذلك غضب وحنق تلميذه الوفى الدكتور جمال سيد بى فرد فى لهجة حادة «إن الدكتور (العراقى) من أكبر المدافعين عن التراث وقد خدم التراث خدمة ما خدمتموها أنتم ولا أشباهكم..

خدمه فى مؤلفاته وأحاديثه ومقالاته وخدمه فى تحقيقه تحقيقا علميا وفى إحيائه وإخراجه.... فليعلم من لم يكن يعلم منكم أن مؤلفات (العراقى) تدور حول التراث دفاعا وتمجيدا وتصحيحا وتنقية».

ذكرتنى تلك الواقعة بما نراه اليوم من انتشار قوى التخلف والرجعية التى تسعى إلى العودة إلى الوراء وطمس كل معالم التقدم والحضارة ومحاربة كل مظهر من مظاهر الرقى الثقافى والعلمى وتساءلت فى حيرة ودهشة كيف تطاول هؤلاء على اتهام أستاذى بهذه التهم الشنيعة؟ كيف تجرأوا ورفعوا ضده القضايا أمام محكمة الجنايات متهمين إياه بازدراء الأديان ورفض التراث الدينى؟ كيف وهو الذى يؤكد فى مقالاته وأحاديثه على احترام الأديان عموما ودورها العقدى والأخلاقى فى حياة الناس؟، كيف يتهم بذلك وهو الذى يرى أن أية أمة بلا تراث فهى أمة بلا ذاكرة بل إنه يؤكد فى أحد حواراته الصحفية: إن لكل أمة التراث الخاص بها والعيب ليس فى التراث ولكن فى الفهم الخاطئ للتراث ولا يصح أن نقف عند حدود التراث الذى تركه لنا أجدادنا بل يجب أن تقوم بفرز هذا التراث واختيار ما يصلح لزماننا وما دام التراث مليئا بالأخطاء فعلينا أن ندرسه وننتقى منه ما يتفق مع العقل والعلم، لكن علينا أن ندرك أن هذه القطيعة لا يمكن أن تكون مع الدين الذى يشتمل على الثوابت وكذلك الأمور المتعلقة بالإيمان والأحكام الاعتقادية، والقيم الكبرى التى أكد عليها الإسلام وهى قيم

الحق والخير والسلام والجمال، كما تشمل المبادئ الكلية التى يلتزم بها الإنسان فى أمور حياته المعيشية والتى تكون عونا له تهديه إلى الطريق الصحيح فتتحقق العدالة فى أسمى صورها.

فرق (العراقى) إذن بين عقائد الوحى والتنزيل وبين عقائد العقول والأذهان تفرقة واضحة لا لبس فيها فعقائد العقول والأذهان تقبل النقض كما تقبل الإبرام وعقائد الوحى والتنزيل لا تقبل نقضا ولا إبراما لأنها مبرمة من ذاتها وليس فى طاقة أحد أن ينقضها ولم تكن هذه التفرقة سوى موقف منهجى لكى يحدد ما الذى يأخذه من هذا التراث وما الذى يتركه ما الذى إذا تمسكنا به ولم يعد مناسبا لعصرنا تقهقرنا به إلى الوراء.

يؤكد (العراقى) أن ما يتفق مع العقل والمعقول نقبله وكل ما يختلف مع العقل نرفضه لكننا أيضا يجب أن نلجأ إلى التأويل لكى نربط بين الماضى والحاضر والمستقبل لأننا إذا ابتعدنا عن التأويل وأغلقنا باب الاجتهاد فمعنى ذلك أننا سنجد تراثنا وكأنه لا فائدة منه فى حياتنا الحاضرة أو المستقبلية.

ما بين الأصالة والمعاصرة:

كان موضوع الصلة بين التراث (الأصالة) من جهة والحضارة الغربية (المعاصرة) من جهة أخرى من أهم القضايا الفكرية التى شغلت تفكير (العراقى) خاصة فى السنوات الأخيرة وقد حفلت

مقالاته وتعليقاته فى الندوات والمؤتمرات بالتأكيد على أننا إذا أردنا الانتقال من الماضى إلى الحاضر فإن العقل هو سبيلنا فى ذلك وإذا كان قد أدى دورا بارزا فى تراثنا العربى فى الماضى وأدى الالتزام به إلى وجود مجموعة من المفكرين والفلاسفة الذين نتباهى بهم بين الأمم فإن الالتزام بالاتجاه العقلى يجب أن يأخذ وضعه فى تراثنا الحاضر كما أن انفتاحهم على ثقافات وحضارات الأمم المحيطة بهم قد أتاح لهم الأخذ والعطاء والإبداع فكانت النهضة الشاملة التى أدت إلى ازدهار حضارتهم وتقدمها مما حدا بالغرب إلى الاعتماد عليها حين سعى إلى التغيير والتجديد فى عصر النهضة.

يؤكد (العراقى) بما لا يدع مجالا للشك إننا إذا أردنا لأنفسنا التكامل وعدم ازدواج الشخصية فلابد أن تكون لنا شخصيتنا البارزة محددة المعالم التى تكون نتيجة للأصالة والمعاصرة ويتساءل على أى أساس يكون حل هذه القضية (قضية الأصالة والمعاصرة)؟ يعول (العراقى) على العقل والعقل وحده كأساس يجب الالتزام به إزاء المعقول واللامعقول من التراث ثم إنه (أى العقل) أيضا هو الأساس فى الانتقاء من المعاصرة وأخذ ما يناسبنا فإذا رجعنا إلى تراثنا وأخذنا منه المعقول فقط ثم مزجنا هذا المعقول بالجانب الحضارى المعاصر فلن نجد فى ذلك صعوبة إذ إن جانب المعاصرة يعد جانبا متمسكا بالعقل فكرا ومنهجا.

إن فكرنا العربى الماضى ذخر بالعديد من المفكرين الذين كانت لهم بصمات واضحة فى تاريخ الفكر والحضارة لكن القليل منهم الذين

تنطبـق على نتاجهم مقاييس الفكر العالمى فـإذا ذكرنا مثلا أبو العلاء المعرى فى مجال الشـعر أو ابن رشـد فى مجال الفلسفة أو ابن خلدون فى مجال التاريخ الاجتماعـى فإن هؤلاء بما تركوه لنا من فكر ومنهج يمكـن أن نقول عنهم إنهم يعدون شـخصيات تحتـل مكانة فى تاريخ الفكر العالمى ويكفـى أن نذكر أن علماءنا الكبار فى الماضى كابن الهيثم والبيرونى وابن سـينا قد أعجب الغـرب بآرائهم وقام بترجمة كتبهم لأنها تساند العقل والاتجاه العلمى ومعنى هذا أننا نجد فى تراثنا آراء وقيما واتجاهات وضاءة مشـرقة يمكن أن نستفيد منها فإذا تساءلنا عن كيفية إيجاد مستقبل مشـرق لفكرنا العربى ومستقبل يؤهله لأن يكون فكرا عالميا فإن ذلك لن يتم إلا إذا تحققت الأمور التالية:

أولا: تنقية التراث: فإذا وجدنا فى كتاب من كتب التراث ما يستند إلى الخرافـة ويدعـو إليها فلابد من اسـتبعاده لأنه لا يصلح أساسـا لكى نقيم عليه فكرنا العربى مسـتقبلا ولا يصح أساسا لبداية الحضارة الفكرية فى أمتنا العربية مسـتقبلا ولا يعنى ذلك رفـض التراث العربى كلية أى ما نسـميه ثورة من الخارج لأن الثورة من الخارج لا تصلح أن تكون دعامة على أساسـها نقيم مستقبلا لفكرنا العربى، ففكرنا العربى وتراثنا يذخر بجوانب مشـرقة وشـخصيات خالدة كانت لها رؤيتها الجريئة وموقفها الشجاع الذى عبرت عنه فى صورة ثورة من الداخل أى ثورة من داخل الفكر ومن داخل التراث نفسـه من هذه الشـخصيات محمد عبده، وطه حسين، وعبـد الرحمـن الكواكبى، وزكـى نجيب محمـود، والمفكر الإسـلامى

محمد إقبـــال.. هؤلاء المجددون لم يقفوا عند حدود التراث القديم فقط ولم ينغلقوا على أنفســهم كما أنهم لم يفتتنوا وينبهروا بثقافة الغرب ومظاهر تقدمه واقتصروا عليه فقط إنما كان منهجهم التجديدى يأخذ من كل معين بما يتواءم مع العقل ومع ظروف الزمان الذى عاشوا فيه.

التــزم (العراقى) بمنهجية قبول ما يتفق مع العقل والمعقول ورفض مــا يختلف معهمــا وظهر ذلك واضحا فى تجديده للمذاهب الفلســفية والكلاميــة وفى ثــورة العقل فى الفلســفة العربية وأخذ مــن المعتزلة ما يتفق مــع هذا المنهج ونقد ما خالف ذلك فــى منهجهم الجدلى وفى ذلك يقول مهمــا يكن من أمر فإننا لا نخفى إعجابنا ببعض مجهودات المعتزلة فهم أفضل فرقة كلامية ولكنهم ليس بينهم فيلسوف، أما آراء الأشاعرة فهى عندنا أضعف ما عرفه تاريخ علم الكلام وهم مسئولون عن كثير من الأخطاء بل والخرافات التى انتشرت بعدهم.

ثانيــا: تهيئة المنــاخ الفكرى: الذى يؤدى بنــا إلى التقدم نحو إيجاد شخصية لفكرنا العربى مستقبلا وفى نفس الوقت يكون متواصلا مع الفكر العالمى أى مناخ تتوفر فيه الحرية وتنتشر فيه حركة التنوير العقلى ويسود برامج تعليمه المنهج العلمى والتفكير العقلانى.

ثالثــا: الانفتاح على ثقافة الغرب: ولكــن ليس معنى ذلك أن نرفض إيجابيات تراثنا العربى ونجعل قيم الغرب وثقافته هى أســاس فكرنا فى المســتقبل (فالعراقى) يرفض التبعية والانسياق وراء الغرب

والانبهـار بمنجزاته لأن ذلك ضياع للهويـة المصرية العربية «إن هذه الفكرة المعاصرة فقـط نرفضها من جانبنا قلبا وقالبا لأنها لا تمثل نوعا من الاستمرار ولا تمثل اعترافا بما فى تراثنا من قيم».

رابعـا: إحياء الـتراث: أى العمل على بعثه مـن جديد برؤية نقدية تنويرية كما ذكرنا سـابقا بصـورة تتلاءم مع العصر الذى نعيش فيه. إذ إننا إذا اقتصرنا على طبع التراث وتحقيق التراث فسوف يكون ذلك معبرا عن فكر محلى لن يتقدم خطوة إلى مستقبل وضاء.

وهكذا يؤكد (العراقى) إننا إذا أردنا مستقبلا لفكرنا العربى فلا مفر من الالتزام بالأسـس التى تعد معبره عـن إحياء التراث من جهة وعن الانتصار للعلـم والعقل من جهة ثانية وعن الدفـاع عن الحضارة أينما وجـدت مـن جهة ثالثة لن نبدأ مـن فراغ ولن ننطلق إلى المسـتقبل بلا هويـة فتراثنـا العقلانى هو الجذر الذى سـوف تسـتند عليه حياتنا المعاصـرة وهـل هناك أعمـق من تراث ابن رشـد فيلسـوف العقلانية ورائـد الاتجاه النقدى التنويرى لننطلق منـه إلى المعاصرة والتحديث؟ يغوص (العراقى) فى أعماق الفلسـفة الرشدية حتى يملأ كيانه الفكرى فيؤسـس نزعة ابن رشد العقلانية كما يؤسـس لمنهجه النقدى وكيف كانت فلسفته المنبع الذى استمد منه الغرب عوامل تقدمه فى «ابن رشد فيلسوفا عربيا بروح غربية» يصل إلى مبدأ مهم وهو أن مستقبل الثقافة العربية لن يتحقق إلا من خلال التمسك بجذور العقلانية التنويرية كما

ظهرت فى فلسفة ابن رشد لم يصل (العراقى) إلى هذه النتيجة اعتباطا وإنما توصل إليها بعد أربعين عاما قضاها مع ابن رشد وفلسفته وفكره المستنير وقد اختتمها بكتاب تذكارى عن هذا الفيلسوف واتجاهه العقلى التنويرى.

يقول (العراقى) «لقد قضيت مع التراث الرشدى فترة من الزمان حتى إننى أكاد أتنفس أفكار ابن رشد برغم اختلافى معه فى رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها.. نعم أتنفس أفكار ابن رشد وأركز على منهجه أساسا ولا أتصور لنفسى حياة بدون منهج هذا الفيلسوف الشامخ العملاق...إن شعارنا هو «لا تنوير بدون الفلسفة الرشدية.. تلك الفلسفة التى أعلنت الثورة على خرافات الظلام وتسلحت بثقافة النور».

رأى (العراقى) أن الفلسفة الرشدية والمنهج الرشدى هما المعبر الحقيقى الذى سوف ينقلنا من حاضر متعثر إلى مستقبل متقدم. ألم تتقدم أوروبا فى بداية عصر نهضتها بأفكار ابن رشد ومنهجه العقلانى التنويرى؟ ألسنا أولى بأن نتخذه وفلسفته نموذجا بحيث نستفيد استفادة حقيقية من فكر هذا الفيلسوف الذى قال بأفكار مستقبلية أفكار لا يصح أن تظل فى زوايا الإهمال والنسيان؟ ألم يدعونا إلى اتخاذ العقل دليلا ومرشدا؟ ألم يكن النقد وسيلته الفعالة لتبديل ظلام الرجعية بنور الفهم المستنير للتراث؟ ألم يدعونا إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى والبحث فى كتب القدماء ودراستها بموضوعية؟

كان ابن رشد عالما وطبيبا وفقيها إلى جانب كونه فيلسوفا نقديا نقد الأدلة الخطابية انتصارا للأدلة البرهانية العقلية كما نقد اللاحتمية الأشعرية انتصارا للعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها والطبائع الثابتة كما اعتقدها وها هو ذا ابن رشد الطبيب والعالم يؤكد أهمية العلم ودوره فى التعبير عن قوة الشعوب وتقدمها ويدعو المسلمين والمؤمنين إلى التمسك والاعتماد على قانون التأويل العقلى للنص القرآنى حتى لا ينفصل زماننا عن معتقدنا، يؤسس ابن رشد رؤيته الفلسفية لمشكلة حرية الإرادة والخير والشر على أساس برهانى عقلانى.. يتساءل (العراقى) بعد مرور ما يقرب من ثمانية قرون على وفاة ابن رشد أين نحن الآن من تلك الدعوة النقدية العلمية الفلسفية إزاء من يهاجمون الحضارة الغربية ويتحدثون عن الغزو الفكرى.

حين يئس (العراقى) من الحاضر المظلم الزاخر بالتيارات الضبابية واللامعقولية رجع إلى الماضى المستنير رجع إلى جذور العقلانية والتنوير عند ابن رشد لتكون دعامة لنا ومدخلا لفكر عربى معاصر ومنهج علمى حضارى.

وهكذا توحد (العراقى) مع ابن رشد فى رؤية تنويرية عقلانية، ووضحت جذور الرشدية فى كل قضية عالجها سواء فى تراثنا القديم أم فى قضايانا المعاصرة، تواصلا بالفكر كما تواصلا بالمنهج والرؤى فكانت التجديدية العراقية.

كتاب «ثورة العقل فى الفلسفة العربية» (عرض ونقد وتحليل)

كثيرة ومتنوعة هى تلك الكتب التى تحمل طابع التنوير، أو تتخذ من العقل أداة موضوعية بحيث يكون فيها هاديا ومرشدا لنا فى حياتنا العلمية والثقافية، لكن أن تتحول قضية العقلانية والتجديد بحيث تكون منهجية فكرية وأسلوب عمل لمفكر أخذ على عاتقه محاولة إصلاح مسار الفكر الفلسفى الإسلامى حتى يكون هناك اتصال وامتداد بين فكر ماض اتسم بالذاتية والإبداع، مع آخر فلاسفة العرب وهو أبو الوليد بن رشد، وبين مفكرين معاصرين لهم دورهم فى إثراء الحياة الفكرية العربية - فهذا بحق جهد عظيم لم يكن فى مقدور أى مفكر أن يقوم به. وأن يتصدى لمخالفيه. لولا أن أستاذنا الدكتور (عاطف العراقى) بما عرف عنه من جرأة فى إعلاء الحق وشجاعة فى القول، ودأب وصبر على العمل. ودقة وعمق فى البحث والتحليل، قد تبنى هذا المنهج وأعلن موقفه صراحة.. إننا إذا أردنا أن تكون لنا فلسفة عربية ممتدة، ولم تنقطع بموت آخر فلاسفة الإسلام (أبو الوليد بن رشد) فإن علينا أن نتخذ من العقلانية المنهاج والمصباح الذى ينير لنا الطريق، فهو وسيلة التجديد التى سوف تجعلنا نتقدم خطوات وخطوات فى سبيل إبداع المذاهب الفكرية. إن هذا نص كلام الدكتور (عاطف العراقى) فى ثنايا كتابه.

نحـن إذاً فى حاجة إلى ثورة لإعادة الثقة فى العقل الذى هو أسـاس البرهـان واليقـين، ولن يتوفر لنا ذلـك إلا من خلال إبـراز التيارات العقلانية الإيجابية فى تراثنا الفلسفى، فهى الكفيلة بإحداث التجديد الذى يؤدى إلى إحداث ثورة فى منهجنا وتفكيرنا، وهى بلا شـك ثورة من الداخل – أى من نسـقنا ومن تراثنا الفلسفى العربى – وليست ثورة من الخارج تهدم مذاهب وآراء أو ترفض تفكيرا عقلانيا.

ويعتبر كتاب «ثورة العقل فى الفلسـفة العربية» هو الكتاب الثالث من سلسـلة كتب العقل والتجديد، فقد سبقه كتاب «تجديد فى المذاهب الفلسـفية والكلامية» وكتاب «مذاهب فلاسفة المشرق» واختتم الدكتور (عاطف العراقى) هذه السلسلة بأحدث كتبه وهو كتاب «العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر».

وقد تضمن كتاب ثورة العقل فصولا ثلاثة. تناول المؤلف فى كل فصل منها دراسة موضوعات من تراثنا الإسلامى تعبر عن هذا الاتجاه.

فالفصـل الأول والـذى يحمل عنـوان «مصادر المعرفـة عند مفكرى وفلاسـفة العرب» يفرق فيه بين طريق الحق، وطريق الباطل، ويعرض لمصـادر المعرفة اليقينية، ومصادر المعرفـة غير اليقينية. فمن المقدمات اليقينيـة: الأوليات العقليـة المحضة، والمحسوسـات، والمجربات والحدسيات، والقضايا التى عرفت لا بنفسها بل بوسط ثم المتواترات.

وأما المقدمات التى ليست يقينية، ولا تصلح للبرهان. فهى المشهورات، والمقبولات، والمظنونات، والمسلمات، والمخيلات، والوهميات.

وإذا كانت المعرفة اليقينية تدخل فى مجال البرهان، والبرهان يرتكز على أسس وجذور عقلية، فإن الدكتور (عاطف) يقيم دعوته إلى التجديد والثورة فى الفكر الفلسفى العربى معتمدا على العقل وهو أول مصادر المعرفة اليقينية، ويطلق عليه الأوليات العقلية المحضة، وهى القضايا التى تحدث فى الإنسان من جهة قوته العقلية المجردة بمعونة الحس والخيال، ويصدق بهذا الذهن اضطرارا من غير أن يشعر بمصدر استفادته من هذا التصديق، وهى تمثل معانى بسيطة مركبة، ومن أمثلتها: الاثنين أكثر من واحد. الكل أعظم من الجزء، السلب والإيجاب نقيضان لا يجتمعان فى شىء واحد فى وقت واحد...إلخ.

أما المصدر الثانى فهو المحسوسات: وهى القضايا التى يصدق بها العقل بواسطة الحس، وهى تؤدى إلى اليقين إذا كانت صائبة.

أما المصدر الثالث فهو المجربات: وهى الأمور والقضايا التى يصدق بها العقل لاشتراك الحس والعقل فى إدراكها بشرط أن يحدث الفعل أو الأمر مكررا، وعلى نهج واحد بصفة دائمة أو بكثرة، ويكون له سبب، وإن لم يعرض ماهية ذلك السبب، فيستلزم ذلك وجود المسبب قطعا مثل قولنا: الخمر مسكر، والضرب مؤلم.. إلخ.

أما المصدر الرابع وهو المتواترات فيعتبرها الأمر المصدق به من قبل تواتر الأخبار دون شك فيها، سواء رأيناها أم لم نرها، غير أن تصديقنا له يأتى من كثرة الشهادات على وجوده. على سبيل الاتفاق والتواطؤ مثل وجود مكة والمدينة وإن لم نبصرهما بالزيارة إلخ.

ويذكر فى المصدر الخامس القضايا التى عرفت لا بنفسها بل بوسط، والعقل هنا يحكم بصدقها لوجود وسط حاضر فى الذهن لا يغيب عنه. فمثلا عندما نحكم بأن رقم أربعة زوجى، فإن الحكم قد ارتبط فى ذهننا بوجود وسط حاضر فى الذهن وهو الانقسام بمتساويين.

وتعتبر الحدسيات المصدر السادس والأخير من المصادر اليقينية، ويتمثل فى سرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب، غير أنه لابد فيها من تكرار المشاهدة مقارنة بالقياس الخفى مثل قولنا: إن نور القمر مستمد من الشمس، إذ إن رؤيتنا لاختلاف تشكيلات القمر النورية بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس قربا أو بعدا يؤكد حدسنا أن نوره مستمد من الشمس.

ثم يعرض لمصادر المعرفة غير اليقينية، ويرى أنها لا تدخل فى مجال البرهان لأنها تتخذ من الجدل أساسا وطريقا ومنها:

المقبولات: وهى أقوال أفاضل الناس، وأكابر العلماء، ومشايخ السلف إذا تكرر نقل ذلك منهم، وأضيف إلى ذلك حسن الظن بهم.

المظنونات: وهى القضايا التى نحكم فيها حكما راجحا مع تجويز نقيضه، وما ينتج عنها من قياس من الخطابيات، وغرضها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معايشهم.

المسلمات: وهى قضايا يسلم بها الخصم ويبنى عليها الكلام سواء أكانت حقه أم مشهورة أم مقبولة.

المشهورات: وهى قضايا يحكم بها لاعتراف أغلب الناس بها كالعادات و الشرائع، والآداب.. الخ.

المخيـلات: وهى القضايا التى لا نسـمعها لصدقها، ولكن لانفعالنا بهـا عـن طريق التخيل فنقبض النفس عن شـىء وتميـل إلى آخر ومن أمثلتها الشعر.

الوهميات: وهى قضايا كاذبة يحكم بها الوهم فى أمور غير محسوسة لأنـه لا يقبل ضدها وهى الأقوال السفسـطائية التى توهمنا فى ظاهرها بأنها تسعى إلى اليقين ولكنها تسعى فى حقيقتها إلى غير ذلك تماما.

وهكـذا يفرق الدكتور (عاطـف العراقى) تفرقـة دقيقة بين مصادر معرفة يقينية يعتبر فيهـا البرهان أسمى صور اليقين ومعبرا عن ثورة العقـل، وبين مصادر غير يقينية يعتـبر فيها الطريق الجدلى الكلامى، والطريق الصوفى القلبى من طرق تقييد العقل وتأكيد تقليديته وجموده.

ويشـير إلى أن الكثيرين من مفكرى وفلاسـفة الإسلام قد بحثوا فى هذا المجال، وفرقوا تفرقه واضحة بينهما، ولكن الأهم هو أن الاعتبار بالتطبيق على الآثار الفكريـة التى تركوها لنا، فالغزالى مثلا فى أكثر كتبـه قد ميز بـين معرفة يقينيـة، ومعرفة غير يقينيـة، كما أدخل الأشـياء التجريبية فى إطار المعرفة اليقينية، غير أنه عندما بحث فى مجال السـببية لم يلتزم بما نادى به، وقال به من قبل، وكانت آراؤه فيها غير يقينية ولم يسـتطع التوفيق بين قوله بالمحسوسـات كمصدر من مصادر المعرفة اليقينية، وقوله بأن العلاقة بين الأسباب والمسببات غير ضرورية، بل هى ترجع إلى العادة وردها إلى الله تعالى.

أما الفصل الثانى وعنوانه (الإلهيات فى فلسفة الفارابى) فتناول فيها الاستدلال على وجود الله مستخدما فكرة الإمكان والوجوب. وطبيعة واجب الوجود وصفاته، وكيفية صدور الموجودات عنه تعالى. مستخدما نظرية الفيض أو الصدور.

وعلى رغم أن الفارابى - كما يذكر د. عاطف العراقى - كان حريصا على التمييز بين الطريق الجدلى الكلامى، والطريق الفلسفى البرهانى، غير أنه فى استدلاله على وجود الله قد استخدم مقدمات جدلية غير يقينية بعيدة عن المسلك العقلى البرهانى، وقد تؤدى إلى نفى العلاقات بين الأسباب ومسبباتها، كما كان ينبغى عليه مناقشه آراء الخصوم والمخالفين له فى الرأى بالنسبة لموضوع صفات الله تعالى، لأن الموقف الفلسفى كان يقتضى منه ذلك. كما أن فى إثباته صدور العالم عن الله وفق نظرية الفيض، وإصراره على أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد يعتبر بعيدا عن مجال اليقين والبرهان. إذ لا نجد مبررا عقليا فى الإصرار على القول بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، كذلك يرى أن اعتماده على فكرة الأشرف والأفضل فى ترتيبه للموجودات لا تقوم على جذور عقلية واضحة.

وفى أسلوب نقدى رشيق يسلط د. عاطف العراقى سهام نقده لتصورات الفارابى الفلسفية موضحا إنه وغيره من فلاسفة العرب لو كانوا قد ابتعدوا عن هذه الأفكار التى لا تدخل فى مجال العقلانية لقدموا لنا آراء أكثر أصالة وأكثر موضوعية ودخولا فى مجال العقلانية.

وفـى الفصل الثالث الذى يحمل عنوان (التصوف الإسـلامى وموقف ابن سينا) يوضح د. (عاطف العراقى) كيف انحرف ابن سينا عن مجال العقل والفكر البرهانى باتجاهه نحو التصوف الذى يعتمد اعتمادا كليا على الوجدان والشعور ويقسم هذا الفصل إلى ثلاثة عناصر:

يوضـح فى العنصـر الأول كيـف أن التصوف يعتمـد على الجانب العملـى المتمثـل فـى الزهد والعبـادة، وأنه يقـوم على دعائـم قلبية لا فلسـفية برهانية، ثم يعرض بعـض المصطلحات الصوفية التى تعبر عن جانب وجدانى لا جانب فلسـفى مثل الحال والمقام، ومقام التقوى، ومقام الرضا والتوكل، وحال اليقين، وحال المحبة، وكيف كان مسلك الزهاد والصوفية يعبر عن الوجدان لا العقل.

أمـا العنصر الثانى: فيعرض لرسـائل ابن سـينا التـى تحمل دلائل صوفية، لا اتجاها عقليا ويحصى ثلاث عشـرة رسـالة وكتابا تحمل تلك الدلالة، مثل الإشـارات والتنبيهات، رسـالة فى ماهية العشق وماهية العـروش..إلخ، ثم يتناول بشـىء مـن التخصيص التفرقـة بين اللذات موضحا أن اللذات العقلية والباطنية أفضل من اللذات الحسية، وقد اعتمد فى تفرقته هذه على فكرة الأفضل والأشـرف وهى فكرة تبعد عن مجال العقل والفكر كما ذكرنا من قبل وتقرب من مجال العاطفة والوجدان.

ثم يعرض لدرجات العارفين وصفاتهـم دون محاولة لنقدها وكأنها حقائـق موضوعية مقـررة، هذا بالإضافـة إلى صعوبة توفـر كثير من

الصفات مجتمعة فى شخص واحد لأن العارف أولا وأخيرا فرد من أفراد البشر.

أما غرائب الفعال التى تصدر عن العارفين، فقد عرضها ابن سينا ودافع عنها مما يتعارض مع مبدأ السببية والعلية الذى آمن به من قبل، كما يتعارض مع منهجه العلمى وبحوثه التى تسودها التجربة العلمية لا السحر والتطير وتلتزم بمنطق العقل وقوانين الوجود لا أحوال الوجد والشوق.

وقد كان نقد د. (عاطف العراقى) لابن سينا فى هذه المجالات كلها نقدا معبرا عن ثورة عنيفة لأنه وجد أن خلط ابن سينا بين مجال العقل ومجال الوجدان، أو طريق العقل وطريق القلب ربما يؤدى إلى الاعتقاد عند غير المتخصصين بتداخل الجانبين وأنهما من الأقوال المنطقية، وأن ابن سينا الذى عرض مقدمات البرهان وحاول التفرقة بينها وبين مقدمات الجدل والخطابة لم يلتزم بمنطق العقل وانساق وراء قضايا ومقدمات بعيدة من هذا المجال.

فالكتاب إذا هو ثورة حقيقية والتزام عميق بما يؤمن به صاحبه، وإحساس هائل بالمسئولية وبما آل إليه واقعنا الثقافى المتردى. وإذا كانت دعوته قد اتسمت بالعنف والقوة فما ذلك إلا لأننا نحتاج فى هذه الحقبة من الزمن إلى ذلك الأسلوب النارى النقدى حتى تستيقظ العقول من سباتها العميق وتنطلق نحو الإبداع والتجديد مستخدمة العقل كمنهج والعلم كأداة للانطلاق نحو مستقبل مشرق وغد أفضل.